تفسير ابن كثير

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بتقواه وهي إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات وقد قال بعدها { وابتغوا إليه الوسيلة } قال سفيان الثوري عن طلحة عن عطاء عن ابن عباس : أي القربة وكذا قال مجاهد وأبو وائل والحسن وقتادة وعبد ا بن كثير والسدي وابن زيد وغير واحد وقال قتادة : أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه وقرأ ابن زيد { أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة } وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه وأنشد عليه ابن جرير قول الشاعر : .

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا وعاد التصافي بيننا والوسائل .

والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود والوسيلة أيضا علم على أعلى منزلة في الجنة وهي منزلة رسول ا صلى ا عليه وسلّم وداره في الجنة وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش وقد ثبت في صحيح البخاري من طريق محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد ا قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة] .

[حديث آخر] ـ في صحيح مسلم من حديث كعب بن علقمة عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد ا بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي صلى ا عليه وسلّم يقول [إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلاة صلى ا عليه عشرا ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد ا وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة] .

[حديث آخر] ـ قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن ليث عن كعب عن أبي هريرة أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال [إذا صليتم علي فسلوا لي الوسيلة] قيل : يا رسول ا وما الوسيلة ؟ قال [أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو] ورواه الترمذي عن بندار عن أبي عاصم عن سفيان الثوري عن ليث بن أبي سليم عن كعب قال : حدثني أبو هريرة ثم قال : غريب وكعب ليس بمعروف لا نعرف أحدا روى عنه غير ليث بن أبي سليم .

[حديث آخر] ـ عن أبي هريرة Bه قال أبو بكر بن مردويه : حدثنا عبد الباقي بن قانع حدثنا محمد بن نصر الترمذي حدثنا عبد الحميد بن صالح حدثنا ابن شهاب عن ليث عن المعلى عن محمد بن كعب عن أبي هريرة رفعه قال [صلوا علي صلاتكم وسلوا ا لي الوسيلة] فسألوه

أو أخبرهم أن الوسيلة درجة في الجنة ليس ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا .

[حديث آخر] ـ قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : أخبرنا أحمد بن علي الأبار حدثنا الوليد بن عبد الملك الحراني حدثنا موسى بن أعين عن ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [سلوا ا لي الوسيلة فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة] ثم قال الطبراني لم يروه عن ابن أبي ذئب إلا موسى بن أعين كذا قال وقد رواه ابن مردويه : حدثنا محمد بن علي بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا عبيد ا بن موسى حدثنا موسى بن عبيدة عن محمد بن عمرو بن عطاء فذكر بإسناده نحوه .

[حديث آخر] ـ روى ابن مردويه بإسناده عن عمارة بن غزية عن موسى بن وردان أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [إن الوسيلة درجة عند ا ليس فوقها درجة فسلوا ا أن يؤتيني الوسيلة على خلقه] .

[حديث آخر] ـ روى ابن مردويه أيضا من طريقين عن عبد الحميد بن بحر حدثنا شريك عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي عن النبي صلى ا عليه وسلّم قال [في الجنة درجة تدعى الوسيلة فإذا سألتم ا فسلوا لي الوسيلة] قالوا : يا رسول ا من يسكن معك ؟ قال : [علي وفاطمة والحسن والحسين] هذا حديث غريب منكر من هذا الوجه وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين حدثنا الحسن الدشتكي حدثنا أبو زهير حدثنا سعيد بن طريف عن علي بن الحسين الأزدي مولى سالم بن ثوبان قال : سمعت علي بن أبي طالب ينادي على منبر الكوفة : يا أيها الناس إن في الجنة لؤلؤتين : إحداهما بيضاء والأخرى صفراء أما البيضاء فإنها إلى بطنان العرش والمقام المحمود من اللؤلؤة البيضاء سبعون ألف غرفة كل بيت منها ثلاثة أميال وغرفها وأبوابها وأسرتها وسكانها من عرق واحد واسمها الوسيلة هي لمحمد صلى ا عليه وسلّم وأهل بيته والصفراء فيها مثل ذلك هي لإبراهيم عليه السلام وأهل بيته وهذا أثر غريب أيضا .

وقوله { وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون } لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم والتاركين للدين القويم ورغبهم في ذلك بالذي أعده للمجاهدين في سبيله يوم القيامة من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبيد ولا تحول ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة الآمنة الحسنة مناظرها الطيبة مساكنها التي من سكنها ينعم لا يبأس ويحيى لا يموت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه .

ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكفار من العذاب والنكال يوم القيامة فقال { إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل

منهم ولهم عذاب أليم } أي لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهبا وبمثله ليفتدي بذلك من عذاب ا الذي قد أحاط به وتيقن وصوله إليه ما تقبل ذلك منه بل لا مندوحة عنه ولا محيص ولا مناص ولهذا قال { ولهم عذاب أليم } أي موجع { يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم } كما قال تعالى : { كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها } الآية فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه ولا سبيل لهم إلى ذلك وكلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد فيردوهم إلى أسفلها { ولهم عذاب مقيم } أي دائم مستمر لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها وقد قال حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له : يا ابن آدم كيف وجدت مضجعك ؟ فيقول : شر مضجع فيقال : هل تفتدي بقراب الأرض ذهبا ؟ قال : فيقول : نعم يارب فيقول ا : كذبت قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل فيؤمر به إلى النار] رواه مسلم والنسائي من طريق حماد بن سلمة بنحوه وكذا رواه البخاري ومسلم من طريق معاذ بن هشام الدستوائي عن أبيه عن قتادة عن أنس به وكذا أخرجاه من طريق أبي عمران الجوني واسمه عبد الملك بن حبيب عن أنس بن مالك به ورواه مطر الوراق عن أنس بن مالك ورواه ابن مردويه من طريقه عنه .

ثم روى ابن مردويه من طريق المسعودي عن يزيد بن صهيب الفقير عن جابر بن عبد ا أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال [يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة] قال : فقلت لجابر بن عبد ا : يقول ا { يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها } قال : اتل أول الآية { إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به } الآية ألا إنهم الذين كفروا وقد روى الإمام أحمد ومسلم هذا الحديث : من وجه آخر عن يزيد الفقير عن جابر وهذا أبسط سياقا وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن أبي شيبة الواسطي حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا مبارك بن فضالة حدثني يزيد الفقير قال : جلست إلى جابر بن عبد ا وهو يحدث فحدث أن ناسا يخرجون من النار قال : وأنا يومئذ أنكر ذلك فغضبت وقلت : ما أعجب من الناس ولكن أعجب منكم يا أصحاب محمد تزعمون أن ا يخرج ناسا من النار وا يقول { يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها } الآية فانتهرني أصحابه وكان أحلمهم فقال : دعوا الرجل إنما ذلك للكفار فقرأ { إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة } حتى بلغ { ولهم عذاب مقيم } أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى قد جمعته قال أليس ا يقول { ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا } فهو ذلك المقام فإن ا تعالى يحتبس أقواما بخطاياهم في النار ما شاء لا يكلمهم فإذا أراد أن يخرجهم أخرجهم قال : فلم أعد بعد ذلك إلى أن أكذب به .

ثم قال ابن مردويه : حدثنا دعلج بن أحمد حدثنا عمرو بن حفص السدوسي حدثنا عاصم بن علي أخبرنا العباس بن الفضل حدثنا سعيد بن المهلب حدثني طلق بن حبيب قال : كنت من أشد الناس تكذيبا بالشفاعة حتى لقيت جابر بن عبد ا فقرأت عليه كل آية أقدر عليها يذكر ا فيها خلود أهل النار فقال : يا طلق أتراك أقرأ لكتاب ا وأعلم بسنة رسول ا مني ؟ إن الذين قرأت هم أهلها هم المشركون ولكن هؤلاء قوم أصابوا ذنوبا فعذبوا ثم أخرجوا منها ثم أهوى بيديه إلى أذنيه فقال : صمتا إن لم أكن سمعت رسول ا صلى ا عليه وسلّم يقول [يخرجون من النار بعدما دخلوا] ونحن نقرأ كما قرأت